

النظام

شكت لي أم أن طفلها غير منظم! «لعبه وملابسه وأقلامه وأوراقه وكتبه في كل مكان! يرفض أن يعيد أي شيء إلى مكانه بعد أن ينتهي من اللعب.» قرأت رسالة هذه الأم وتذكرت كلمات د. «ماريا مونتيسوري» عن حب الطفل الفطري للنظام والجمال والترتيب. من خلال عملها مع الأطفال أقل من ست سنوات، لاحظت د. «مونتيسوري» قدرتهم المبهرة على الملاحظة، الطفل يلاحظ إذا تغير مكان شيء ما بالمنزل، أو إذا كانت هناك أتربة على رف ما، أو إذا كان الطبق متسخًا. إذاً ماذا يحدث؟ كيف يتحول الطفل من كائن يحب النظام والنظافة والترتيب إلى كائن لعبه وملابسه في حالة فوضى تامة؟

البداية تكمن في ماذا اعتاد الطفل أن يرى؟ هل اعتاد أن يرى والديه يسوون فراشهم في الصباح؟ هل اعتاد أن يراهم يضعون الأكواب المتسخة في الحوض أولاً بأول؟ هل اعتاد أن يرى عملية إزالة الأتربة اليومية من على الأسطح؟ هل اعتاد أن يرى والديه يعلقان ملابسهما؟ إذا نشأ الطفل منذ ميلاده وبداية إدراكه، في عمر ثلاثة أشهر، في منزل نظيف ومرتب طوال الوقت فسوف يعتاد ذلك ويحبه ويشعر بالسلام الداخلي في الأماكن المنظمة.

أما إذا نشأ الطفل في منزل يرى أن هناك شخصًا آخر يقوم بالترتيب والنظام والنظافة فإنه يعتاد فكرة أن النظام والنظافة ليست من مسؤولياته الشخصية.

عقل الطفل يمتص جميع الصور والتجارب التي يمر بها خلال الثلاثة أعوام الأولى من عمره ويبدأ في التعبير عنها بالفعل والقول فيما بعد. إليكم بعض النصائح التي تساعدك على إعادة النظام إلى منزلكم:

- لا تأمروا الطفل أن يضع لعبة ما مكانها لأن هذا سوف يأتي بنتيجة عكسية - حتى إن أطاعكم في لحظتها فسوف يكون «النظام» مصطنعًا وليس نابغًا من داخله.
- ابدءوا بأنفسكم، ودعوا الطفل يلاحظ ويراقب ويمتص هذا النوع من الانضباط. ابدءوا بترتيب سريركم وحجرتكم وملابسكم كل يوم عند الاستيقاظ وعند العودة من الخارج. ابدءوا بغسل الأكواب والأطباق المتسخة في لحظتها ثم تحفيفها وإعادة مكانها. ابدءوا بضبط أنفسكم أولاً!
- سوف يعتاد طفلك على الروتين الجديد خلال بضعة أشهر. سوف يثق أن التغيير الجديد حقيقي ومستمر. سوف يراقبكم كثيرًا قبل أن تروا منه أي تغير في سلوكه. خلال هذه الفترة لا تجربوه على النظام، ادعوه لمساعدتكم في إعادة لعبه إلى مكانها ولكن لا تفرضوا عليه شيئًا لم يمتصه عقله بعد.
- عند اللعب، لا تخرجوا أكثر من لعبة في نفس الوقت لأن هذا مضر جدًا لقدرة الطفل على التركيز والاستيعاب، وفي الوقت نفسه يجعل النظام والترتيب أمرًا شاقًا! عند الانتهاء من نشاط ما، إذا كان طفلكم راضيًا، احمّلوا الطفل معكم كل مرة تحضروا فيها لعبة وكل مرة تعيدوها فيها. إذا كان طفلكم يستطيع السير، دعوه يساعدكم في إعداد النشاط ودعوه يساعد في الترتيب بعد الانتهاء من النشاط. هكذا تنشئون من البداية طفلًا منظمًا ومرتبًا.
- إذا كان طفلكم اعتاد عدم النظام، بعد أن تبدءوا بأنفسكم، اتفقوا معه على الروتين الجديد في وضع كل لعبة مكانها عند الانتهاء منها. إذا سأل عن السبب، اشرحوا له أن الغرفة شكلها أحلى وأجمل وهي مرتبة.
- كرروا أمام الطفل كثيرًا في كل مناسبة أن بيتكم جميل ومرتب! بيتكم جميل ومنظم!

- بيتكم رائحته ذكية! هذه العبارات سوف ترسخ ارتباط الجمال بالنظام والنظافة.
- يجد الأطفال صعوبة في إعادة لعب كثيرة لأماكنها في نفس الوقت - لا تخرجوا جميع اللعب في نفس الوقت ولا تعيدوها إلى مكانها وحدكم في نهاية اليوم بعد أن ينالم الطفل.
- يجد الأطفال كذلك صعوبة في وضع الأشياء في أماكنها إذا كانت في غير متناول يديهم. ساعد الطفل على النظام بوضع رفوف وأدراج يمكن للطفل أن يتعامل معها وحده، وضعوا في الغرفة سلمًا صغيرًا من درجة أو درجتين يستطيع الطفل الوقوف عليه والاعتماد على نفسه.
- لا تضعوا جميع اللعب في صندوق واحد! إذا أراد الطفل لعبة ما فعليه أن يقلب الصندوق كله!
- لا تكافئوا الطفل على النظام! النظام أمر بديهي وفطري ولا يجب أن يتم التعامل معه كشيء خارق يستحق المكافأة.
- أعتبر حب «آدم» للنظام والنظافة من انتصاراتي الصغيرة أيضًا. ليس مثاليًا. ليس منظمًا فوق العادة. ليس مهووسًا. هو فقط يعرف كيف يعيد الأنشطة إلى أماكنها وكيف ينظم حجرة ألعابه بعد الانتهاء من اللعب، هذا يكفيني!
- ما هي أهم سمات الطفل في أعوامه الثلاثة الأولى؟
- على الرغم من اهتمام نهج المونتيسوري بمهارات الطفل الفردية ونموه وفقًا لقدراته الشخصية، وجدت د. «ماريا مونتيسوري» صفات مشتركة بين جميع الأطفال في أول ثلاثة أعوام من عمرهم. الهدف من كتابة هذه السمات هنا هو مساعدة الأهل على توقع سلوك أطفالهم وتقبل قدراتهم واحتياجاتهم العمرية.
- أول سمة: الفضول

كما قلنا يولد الفضول مع الطفل! تبدأ تراه في عينيه المتبعة لكل ما هو متحرك وكل ما هو ناطق وكل ما هو داكن. يكبر فضول الطفل معه ليشمل مذاق الأطعمة والملامس والروائح ثم يتشعب الفضول ويصل إلى الأدراج والأرفف والأقفال وفيش الكهرباء والأدوات

الكهربائية. هكذا يولد الفضول وهكذا يكبر، بدون أي تدخل منك يولد وبدون أي تدخل منك يكبر.

ثاني سمة: نمو القدرة على التركيز

ما بين 8 و15 شهرًا يسهل تشتيت انتباه الطفل ولا يمكنه اللعب بلعبة واحدة أكثر من دقيقة وما بين 16 و19 شهرًا تكثر حركة الطفل لكنه يستطيع إتمام نشاط لا يستغرق أكثر من دقيقتين أو ثلاث على الأكثر! وما بين 20 و24 شهرًا يسهل على الطفل التركيز في نشاط معين ما بين ثلاث وست دقائق – الأصوات تشتت انتباهه في هذه المرحلة! ما بين 25 و36 شهرًا تزداد قدرة الطفل على التركيز لتصل إلى خمس أو ثماني دقائق ويمكنه قطع اللعب للاستماع إلى حوار أو مراقبة ما يحدث حوله ثم العودة بسلاسة لاستكمال لعبه! ما بين 3 و4 سنوات يستطيع الطفل التركيز في نشاط ما لمدة عشر دقائق!

ثالث سمة: الرغبة في الاستقلال

تقول د. «ماريا مونيتيسوري» في كتابها The Absorbent Mind إن هناك أشياء كثيرة لا يمكن أن تعلمها للطفل مثل الجلوس والمشي والكلام وإطعام نفسه وخلع وارتداء ملابسه والاستقلال! كل ما يمكنك أن تقدمه للطفل هو بيئة صديقة تساعد على هذه الخطوات عندما يكون مستعدًا لها جسديًا وعصبيًا ونفسيًا. لا يمكنك أن تجعل طفلًا يسير قبل أوانه وإلا نتج عن محاولتك العديد من الإحباطات والشروخ النفسية وتقوس في عظام الساقين! كذلك لا يمكنك تعليم الطفل الاستقلال من خلال إرغامه على الابتعاد عنك وحرمانه من الشعور بالأمان ونكران حقه في الحضان والحب والاستجابة لندائه. مثل هذه النصائح تؤدي إلى النفور والعديد من المشاكل النفسية.

رابع سمة: التفاوض

بدءًا من عامه الثاني، يبدأ الطفل في تحدي الأوامر ومحاولة كسر القواعد والتفاوض على كل شيء من الأكل للملابس للخروج للعب. يتفاوض الطفل ليرى رد فعلك، هل ستخضع له أم ستصمد على موقفك؟ عندما يبدأ الطفل في التفاوض والتمرد لا تقهره باستخدام العنف اللفظي أو الجسدي. التزم بالهدوء والحسم وكرر طلبك. لا تخضع للبكاء

أو للصراخ أو للإحراج المتعمد أمام الناس وإلا سيتعلم طفلك أن هذه هي الطريقة المثلى للتفاهم معك.

خامس سمة: الإحباط السريع

تجد طفلك يحاول وضع المكعب فوق الآخر أو يحاول إدخال لعبة ما في صندوق أو يحاول وضع قطعة بازل، تجده يفشل فيحبط فيغضب فيبكي. هذا طبيعي.

دورك هنا هو التدخل قبل أن يصل الطفل لمرحلة الغضب والبكاء. تدخل واعرض المساعدة. لا تنتجج مباشرة، علم طفلك كيف يحاول وكيف يفكر وكيف يجرب بطرق مختلفة ليصل إلى الحل.

سادس سمة: الأنانية

طفلك غير قادر على تنظيم انفعالاته أو السيطرة على رغباته أو التعاطف معك. طفلك يريد كل شيء الآن ولا يعرف كيف ينتظر أو يصبر. شعاره هو «أنا ثم أنا ثم أنا الآن».

دورك هو كسب ثقته من خلال الاستجابة لاحتياجاته الأساسية مثل الرضاعة أو الطعام أو النوم أو الحضان. لا تتجاهل طفلك ولا تدعي عدم الفهم أو المعرفة. حتى وإن كنت مشغولاً، يجب أن يعلم طفلك أنك سمعته وفهمته وسوف تلبي احتياجاته.

سابع سمة: الاحتياج لروتين

الفوضى أكبر عدو لطفلك في هذه المرحلة لأن الطفل يخاف من المجهول، وفي هذه السنوات المبكرة كل شيء مجهول بالنسبة للطفل. اجعل هناك وقتاً محدداً للنوم والاستيقاظ والطعام والحمام والخروج والعودة. اجعل هناك طقوساً متكررة لكل فعل من الأفعال السابقة. الروتين يساعد الطفل على الاسترخاء والنمو بصورة صحية.

ثامن سمة: عدم تقبل التغيير

التغيير في أي من العادات والطقوس اليومية يزعج الطفل في هذه المرحلة وخاصة من عمر عام. هذه بداية المرحلة الحساسة للنظام. يظن البعض أن هذه سمة من سمات التوحد ولكنها في الواقع مرحلة طبيعية يمر بها الطفل.

تاسع سمة: التشبث بالأهل

وكما قلنا أيضًا تشبث الطفل بأهله - في أغلب الأوقات بأمه - هو مرحلة طبيعية يمر بها الطفل أثناء نموه العاطفي والاجتماعي. تبدأ المرحلة الأولى من رهبة الانفصال تقريبًا في عمر سبعة أشهر، بحسب شخصية الطفل الفردية، وتنتهي بعد العامين. يشعر الطفل في هذه الفترة أن أمه هجرته وأنها لن تعود وأنه لن يراها مجددًا، والسبب في ذلك هو أنه لا يستطيع أن يسترجع صورها من الذاكرة، ومن الناحية العقلية هو غير قادر على فهم أن الشخص لا «ينتهي» بمجرد اختفائه. في هذه المرحلة يتعلم الطفل الجلوس والحبو والمشي والجري ويجب أن يستكشف العالم من حوله بعيدًا عن أمه ولكنه يحتاج أن يراها دائمًا وأن يعود إلى حضنها وقتما شاء. إذا لم تستجب الأم لهذا الاحتياج الدائم وتركت طفلها يعاني مشاعر الرفض والهجر فسوف يفقد الطفل الثقة فيها وفي البالغين عمومًا وسوف تعرقل رحلته نحو الاستقلال النفسي.